

الشيخ حمّد الحُصيني كما عرفته (١)

هو الشيخ العابد الزاهد صاحبُ البذل والمعروف والندى،
أبو عبدالرحمن حمّد بن عبدالرحمن بن محمد الحُصيني (٢)، التّيمي نسبًا.

كان مولده في بلدته (أشيقر) (سنة ١٣٤٥هـ)، ونشأ فيها وترعرع، ثم سافر
وتنقل وارتحل كحال كثيرين من أهل قُطره وما جاوره طلبًا للرزق، فزاول
أعمالًا مُختلفة، ثم اشتغل بالتجارة فنال منها حظًا وافرًا، لكنها لم تشغله عن
ذِكْرِ رَبِّهِ وعبادته، فكانت الدُّنيا في يده، ولم تدخل قلبه، هكذا أحسبه والله
حسيبه، ولا أزرني على الله أحدا.

بل سخر ماله فيما يُقرّبه إلى ربّه تعالى، فعمر المساجد، وأسس مَبَرَّة امتد
عطاؤها في طول هذه البلاد وعرضها، في مُختلف أبواب البر مما يتصل بالعلم
والتعليم، وطباعة الكتب النافعة، ودعم المؤسسات الخيرية المُتميزة، وغير
ذلك مما به نفع للمجتمع.

وكان رحمه الله مع ذلك شديد الغيرة على محارم الله وحُدوده، وتعظيم
شعائره، لا سيما الأركان الخمسة، وعلى الخصوص: الصلاة، والزكاة، فهو
كثير الحديث عنهما، والحث عليهما، والنصح لمن يُقصر فيهما، ينصح

(١) وقد جاورته (٢٧) عامًا.

(٢) وهو لقب لجَد الأسرة أطلقه عليه إبراهيم بن محمد علي باشا بعدما لقيه وصرّفه عن
العدوان على بلدته (أشيقر)، وكان أميرًا عليها آنذاك.

مُشَافَهة، وتَرى أثر ذلك ظاهرًا في نَبْرة صوته، ونَظرات عينيه، وربما كتب في رسالة ودَفَعها لمن يَنصحه بذلك.

وهو بهذا الحرص والاهتمام يُدرك ما جُبِلت عليه النفوس من التعلق بالمال، والحرص على جمعه وادخاره، لا سيما أهل الكثرة والثروة، فقد يكون بعضهم مُصلِّيًا لكنه يبخل، فلا تُطَاوِعه نفسه على إخراجها.

وكان -رحمه الله- كثير التلاوة لكتاب الله تعالى، سألته مرة عن المدة التي يختم فيها؛ لكثرة ما كان يقرأ، فأخبرني أنه يَخْتِم كل خمسة أيام، وذاك أيام نشاطه وصِحته، وانشغاله، وأظنه بعد ذلك كان يختم في أقل منها.

وكان يُبَكِّر في حضوره للمسجد، ولعلَّه من أول الداخلين فيه إن لم يكن أوَّلهم. ومَوْضِعه دائما خلف الإمام، مع المُحَافَظة على السُّنن الرواتب والنوافل وقيام الليل.

وفي مرضه الأخير وهو في المَشْفَى، كان يصحو لحظات فيسأل: هل أَدَّان؟ ثم يَغلبه النوم وهكذا.

قُلْتُ له ذات مرَّة وهو عليل: أبشِّر، فأنت على خير عظيم، وبِر، ولم تَشْغَلْكَ الدنيا عن عبادة الله عز وجل.. فبكى، وقال: لِعِلْمِي أنك تُسَرُّ بما أَدُّكَر، فإني لا أعلم أني تركتُ قيام الليل (أظنُّه قال: مُنذُ خمسين سنة). وكان هذا قبل نحو خمس سنوات.

وسألني ذات ليلة وكان مريضاً - وقد خَسَفَ القمر - عن الاكتفاء بصلاته المعتادة بعد العشاء في بيته عن صلاة الخُسوف. وذَكَرَ في سياق الكلام أنه يُصَلِّي كل ليلة في أوَّلها يقرأ جُزءًا ونِصْفَ جُزءٍ من القرآن، ثم يَقُومُ يُصَلِّي في آخر الليل، يُكْمِلُ صلاته، وكان يُصَلِّي في كل ليلة بستة أجزاء، مع إطالة السجود والتضرع والبكاء(١). مع المُتَابَعَة بين الحج والعمرة، فكان يقضي رمضان كُلَّهُ في مكة، وَيَبْقَى بعد رمضان حتى يصوم ستًّا من شوال.

ولما ضَعُفَ في سنواته الأخيرة، وتتابعت عليه الأسقام صار يَمُكُثُ بعد العمرة ليالي معدودة ثم يرجع.

وكان كثير النُصْح، أَحْسَبَهُ من الصَّادِقِينَ، لا يُحَابِي ولا يُجَامِلُ على حِسَابِ دِينِهِ، مع بَشَاشَةٍ وَحُسْنِ مَعَشَرٍ، مَنْ رَأَاهُ أَحَبَّهُ وَأَلْفَهُ، مع رِقَّةِ قَلْبٍ، وكان صاحب دُمْعَةٍ، وَلَطَّالَمَا رَأَيْتُ تلك الدُّمُوعَ وهي تَتَرَفَّرُ في عينيه.

وأحسبه ممن قال الله: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءَ آتَاوَا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

فكان يَبْذُلُ المال ويكثر من الصدقة، ويتفقد الفقراء والمُحْتَاجِينَ، ولربما بادر بشراء مَسَاكِينَ لبعض هؤلاء من غير أن يتقدموا إليه بطلب ولا سُؤال؛ يفعل ذلك وعيناه باكيتان.

(١) أخبرني بذلك أحد أبنائه.

والمقصود أن حياته - رحمه الله - كانت عامرة بالطاعة والعبادة، فَمَثَلُهُ
يكون فَقْدُهُ له وَقَعٌ شديد على النفوس رحمه الله رحمة واسعة.

وكانت وفاته - رحمه الله - عصر يوم الأحد، الثالث عشر من شهر رجب،
من سنة (١٤١هـ) وقد صَلَّى عليه في عَصْرِ يوم الاثنين، وشَهِدَ تلك الصلاة
جُمُوع كثيرة، كما شَيَّعَهُ حَشْدٌ كثير، أسأل الله أن يرفع درجاته، ويجعل قبره
رَوْضَةً من رياض الجنة، وأن يُكْرِمَ نُزُلَهُ وَيُوسِّعَ مَدْخَلَهُ إنه سميع مجيب.

وفي مثل هذه السيرة العَطِرَةِ عِبْرَةٌ لطلاب العلم في العمل بما عَلِمُوا، وفيه عِبْرَةٌ
لرجال الأعمال، وَأَرْبَابِ المال، فهل يُرَادُ العلم، أو المال إِلا لِمَثَلِ هذا.

أ.د. خالد بن عثمان السبت